

مشكلة الجوالي في البرديات الأموية

جاسر أبو صفية

تعدّ مشكلة الجوالي من أهمّ المشكلات الماليّة والاجتماعيّة التي واجهت الدولة الأمويّة في مصر إبّان ولاية قُرّة بن شريك العبسيّ (90 هـ - 96 هـ) . وقد التقط المستعربون هذه المشكلة وضخّموها وابتعدوا بها عن مضمونها الحقيقيّ ، وجعلوا منها مشكلة طائفية تمثّل وصمة عارٍ في جبين الدولة الأمويّة .

فما قصّة هؤلاء الجوالي ؟ وما الموقف الحقيقيّ للدولة الأمويّة منهم ؟ وكيف عالَجَ قُرّة بن شريك هذه المشكلة ؟

هذا البحث محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة بإلقاء الضوء على قضية الجوالي كما وضّحتّها الأوراق البرديّة واليونانية التي اكتشفت في مصر في بداية القرن الحاليّ . ولعلّ من المفيد وقبل الخوض في البرديات ، أن أقف عند دلالة الكلمة في اللّغة ثمّ في الاصطلاح .

الجوالي لغة واصطلاحاً :

قال في " اللسان " ⁽¹⁾ : جلا القوم عن أوطانهم يَجْلَوْنَ وَاجْلَوْا ، إذا خرجوا من بلدٍ إلى بلد . ويقال : أجلاهم السلطان فأجلّوا : أي أخرجهم فخرجوا . والجلأ : الخروج عن البلد . وقد جَلَّوا عن أوطانهم وَجَلَّوْهُمْ أنا ، يَتَعَدَّى ولا يَتَعَدَّى . ويقال أيضا : أجَلَّوا وأَجَلَّيْتُهُم أنا . والجالية : الذين جَلَّوا عن أوطانهم . وتأتي بمعنى تفرّقوا . وَفَرَّقَ أبو زيد بينهما فقال : جَلَّوا من الخوف ، وأَجَلَّوا من الجَدْب .

وتأتي بمعنى طَرَدَ النحل بالدخان لاشتتار العسل ، قال أبو ذؤيب الهذلي يصف النحل والعاسل :

فلما جَلَّاهَا بالأيام ، تَحَيَّرَتْ ثَبَاتٍ عَلَيْهَا ذُلَّاهَا واكتنبلها

قال أبو حنيفة الدينوري : جَلَا النحل يَجْلُوها جَلَاء ، إذا دَخَنَ عليها لاشتتار العسل . وَجَلَوَةُ النحل . طَرَدُهَا بالدخان .

وقال ابن الأعرابي : جَلَّاه عن وطنه فجَلَّاه أي طَرَدَهُ فهِرَبَ .

أمّا في الاصطلاح : فالجالية : اسمٌ لأهل الذمّة لأنّ عمرَ بن الخطّاب ، رضي الله عنه ، أجلاهم عن جزيرة العرب ، لِمَا تقدّم من أمرِ رسول الله ، صَلَّى الله عليه وسلّم ، فيهم ، وهو قوله : " لا يجتمعُ في جزيرة العرب دينان " ⁽²⁾ . وقد لزمهم هذا الاسمُ أين حلّوا ، ثمّ لزم كلّ من

(1) لسان العرب ، مادة جلا .

(2) انظر حول الحديث وإخراج اليهود من جزيرة العرب : أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ، كتاب الخراج ، تحقيق إحسان عباس ، ط 1 ، دار الشروق ، بيروت والقاهرة ، 1405 هـ / 1985 م ، ص 155 ، أحمد بن حنبل ، المسند ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، 1398 هـ / 1978 م ، البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين ، السنن الكبرى ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت ، ج 9 ص 56 ، المتقي الهندي البرهان فوري ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تحقيق الشيخ بكرى حيّاتي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 5 ، 1985 م ، ج 12 ص 307 ، رقم 35148 و ج 14 ص 166 ، رقم 38252 .

لَزِمَتْهُ الْجَزِيَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِكُلِّ بَلَدٍ، وَإِنْ لَمْ يُجَلُّوا عَنْ أَوْطَانِهِمْ. يَقَالُ :
اسْتُعْمِلَ فُلَانٌ عَلَى الْجَالِيَّةِ : أَيُّ عَلَى جِزْيَةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ .

وعلى ذلك فمصطلحُ الجالية يحمل مدلولين : أولهما : الذين يَجَلُّون
عن ديارهم بمحض اختيارهم أو بالإجبار . وثانيهما : أهل الذمة الذين
يدفعون الجزية .

ثم استُعْمِلَ لفظُ " الجالية " مرادفا للجزية أو بدلا منه كما يتضح
في كلام أبي يوسف صاحب كتاب " الخراج " مخاطبا هارون الرشيد :
" إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيُّهُ اللَّهُ تَعَالَى ، سَأَلَنِي أَنْ أَضَعَ لَهُ كِتَابًا جَامِعًا يُعْمَلُ
بِهِ فِي جَبَايَةِ الْخَرَاجِ وَالْعَشُورِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْجَوَالِي " (3) .

هذا هو الأصل في معنى الجالية والجوالي في العصر الأموي وما
تلاه من العصور الإسلامية (4) .

المستعربون ومصطلح الجوالي :

تُرْجِمَ لفظُ الجوالي في دراسات المستعربين ، على اختلاف لغاتهم ،
ليدلَّ على الهاربين من أوطانهم لئلا يدفعوا ما عليهم من ضرائب ؛ ففي

(3) كتاب الخراج ، ص 67 ، 152 ، وقابل ب : الخراج وصناعة الكتابة ، لقدامة بن جعفر ،
تحقيق محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد ، سلسلة كتب التراث (110) ، بغداد ، 1981 م
ص 226 ، ومفاتيح العلوم ، للخوارزمي ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي
، بيروت ، ط 1 ، 1404 هـ / 1984 م ، ص 85 - 86 .

(4) انظر : حبيب زيات ، الجوالي أو جزية رؤوس النصارى في الإسلام ، مجلة المشرق ،
السنة الحادية عشرة والأربعون ، نيسان - حزيران ، 1947 م ، ص 1 - 12 .

الإنجليزية معناه " Fugitives " وفي الألمانية " Fluchtlinge " (5) .

ويذكر دينيت (Dennett) في كتابه " الإسلام والجزية " أن الرجال كانوا يهربون تخلصاً من الضرائب ... ولا بد أن الدافع إلى الهرب كان الفائدة الاقتصادية التي تعود على الآبق الذي كان يتوقع تخفيف أعبائه الضريبية ، وكذلك تحسين وضعه ... وأصبح من الواضح أن العرب هم الخاسرون كثيراً ؛ إذ كانوا هم وحدهم الذين ملأوا الدنيا ضجيجاً وصياحاً ولجأوا إلى أعنف الوسائل للتغلب على مشكلة الآبقين " (6) .

ويعرض ترتون في كتابه " أهل الذمة في الإسلام " لهذه المشكلة في عهد قرة بن شريك العبسي فيقول : " وفي هذا الوقت فرّ كثير من الفلاحين المصريين من قراهم وتخلّوا عن أراضيهم . وقد لا نكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا إن فداحة الضرائب كانت إحدى الدوافع لهم على ذلك " (7) .

وأشار إليها مرة ثانية فقال : " كما أن الهاربين الذين يحاولون الهرب تخلصاً من فداحة الضرائب لا يتهياً لهم النجاح التام في محاولتهم هذه " (8) .

(5) انظر حول ترجمة اللفظة ،

Grohmann, A. Arabic Papyri in the Agyptian Libray, vol. III, p. 26, n° 151; Becker, C. " Neue Arabische Papyri des Aphroditofundes (NPAF), Der Islam, vol. II, 1911, p. 258, n° v; Bell, H. I, Aphrodito Papyri, JHS, vol. XXViii, 1908, p. 107 f; Bell, H.I. Translations of the Greek Aphrodito Papyri in the British Museum, Der Islam, vo. II, 1911, pp. 378-379, nos. 1381-1384.

وما يؤسف له أن د. فوزي فهم جاد الله ، الذي ترجم كتاب دينيت ، الجزية والإسلام ، لم يلتزم بالمعنى الذي ذكره مؤلف الكتاب وهو " الهاربون " " Fugitives " فترجم اللفظة على أنها " الآبقون " وفرّق كبير في المعنى بين الآبق والهابر والجالي .

(6) دينيت دانيال ، الجزية والإسلام ، ترجمة فوزي فهم جاد الله ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1960 م ، ص 169 .

(7) ترتون ، أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة حسن حبشي ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 ، 1967 م ، ص 238 .

(8) نفسه ص 252 .

ويطالعنا الرَّأي نفسه عند المستعربين الذين نشرُوا البرديات العربية واليونانية مثل جرومان وبكير⁽⁹⁾ .

ومّا يؤسف له أنّ البرديات العربية التي وصلت إلينا سالمة من التّلف والحرّق ، ليس فيها ما يشفي الغليل في هذه المشكلة ؛ إذ ليس بين أيدينا سوى برديّة واحدة ورد فيها مصطلح الجالية ونصّها كما يلي :

" بسم الله الرَّحمان الرَّحيم
من قُرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أَشْقَوَة ،
فإني أحمدُ الله الذي لا إله إلّا هو ،
أمّا بعد ،

فإنّ هشام بن عمر كتب إليّ يذكرُ جالية له بأرضك . وقد تقدّمت إلى العمّال وكتبتُ إليهم ألاّ يؤوّا جالياً " . فإذا جاءك كتابي هذا فادفع إليه ما كان له بأرضك من جاليتّه . ولا أعرفنّ ما ردّدتَ رُسُلَه أو كتب إليّ يشتيك . والسّلام على من اتّبع الهدى .

وكتب يزيد في جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين " (10) .

ومن الواضح أنّ هذه البرديّة أمرٌ إلى بسيل ، عاملُ قُرّة على أَشْقَرَة (كوم أشقاو = Aphrodito) ليعيد الجالية التي استقرت في كورته إلى الكورة التي جاءت منها ، وهي التي يديرها هشام بن عمر . كما تتضمّن إشارة إلى أنّ قُرّة بن شريك كتب رسائل مُمّالة إلى الحُكّام الإداريين في سائر الكور ألاّ يسمحوا للجوالي بالإقامة في أراضيهم .

ويبدو أنّ هذه المشكلة كانت تُورّق قُرّة بن شريك ؛ لما تحدّثه من فوضى واضطراب في الأحوال الزراعيّة بسبب هجرة الأراضي الزراعيّة ،

(9) انظر المصادر في الحاشية رقم 5 .

(10) Grohmann, A. Arabic Papyri in the Egyptian Library, vol. III, p. 26, n° 150. .

مما يؤدي إلى نقص في واردات بيت المال . وقد حاول قُرّة جاهدا أن يضبط أمر الجوالي ويحدّ من هجرتهم ، كما يتّضح من البرديات التي وصلتنا باللغة اليونانية ، مع أنّها ترجمة غير دقيقة للأصل العربي الذي ضاع بفعل الحرق المتعمّد من قبل الفلاحين الجهلة الذين وجدوا البرديات في أكوام السّباح ⁽¹¹⁾ .

وفي هذه البرديات ما يرّد على الزّعم القائل إنهم هربوا من فداحة الضرائب أو من الأسلوب القاسي الذي كان يتّبع في تحصيل الضرائب . وفيما يلي عرض لبعض البرديات التي تبيّن خطأ الزّعم الاستعرابي ،

قَرْضُ الجزية وَجَمْعُهَا :

نجد في إحدى البرديات العربيّة أنّ قُرّة يُحذّر عامله على أشقوة (بسيل) من استعمال العنف في أخذ الجزية :

" أمّا بعد ، فإنّ القاسم بن سيّار ، صاحب البريد ، ذكر لي أنّك أخذت قُرّي " في أرضك بالذي عليهم من الجزية ، فإذا جاءك كتابي هذا فلا تعترض أحداً " منهم بشيء حتى أحدث إليك فيهم إنّ شاء الله " ⁽¹²⁾ .

ويُفهم من الرّسالة أنّ بسيلاً " عاقب بعض القرى ليَجبرهم على دفع الجزية ، إذ معنى " أَخَذَ " هنا يدلّ على إيقاع العقوبة ، يقال : أَخَذَ فلان بذنبه ، أي حَبَسَ وَجُوزِيَ عليه وعوقب به . ومنه قولُ الله تعالى :

(11) حول قصّة حرق البرديات انظر :

Abbott, Nabia, The Kurra Papyri from Aphrodito in the Oriental Institute, the Oriental Institut of the University of Chicago, Studies in the Ancient Oriental Civilization N° 15, Chicago, 1938, 1938, p. 2.

Grohmann, Arabic Papyri, vo. III, p. 28. (12)

" فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ " [آل عمران 11] . وقوله :
 " فَأَخَذْنَاَهُم بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ " [الأنعام 42] . ولهذا
 رفض قُرّة أن تُحَصِّلَ الجزية بالعقوبة والإكراه .

وفي برديّة باللغة اليونانية يأمر قُرّة عامله على كورة أَشَقْوَة أن
 يتَّقِيَ اللَّهَ ، ويتوخّى العدل والمساواة في تقدير الجزية . وعليه أن يؤلّف
 لجنة من أربعة رجال معروفين في القرية يرأسهم موظف خاص ، يُوكَلُ
 إليهم أمر تقدير الجزية المطلوبة من كلّ شخص ، وأن يُعْمَلَ بذلك سجلّ
 يُكْتَبُ فيه الأسماء والممتلكات ، ويُرسَل إلى الوالي في الفُسْطاط لينظرَ
 فيه ، ويُقرَّرَ على ضوءه الجزية المستحقّة على البلدة . ويُحذَرُ قُرّة
 عامله من المحاباة أو الظلم في تقدير الجزية . وإذا اتضح لقُرّة أن أحد
 الرّجال قد حابى في التقدير أو حمّل رجلاً " فوق طاقته فسيُعاقب في
 بدنه وممتلكاته ؛ إذ ينبغي أن يُعامل جميع الناس بالعدل ، وأن يفرض على
 كل رجل حسب طاقته . وعلى هذه اللجنة أن تتعهد ، كتابةً ، " بسدّ
 النقص ، إذا حمّلت إنساناً " فوق طاقته أو خفّفت عن آخر ، كما ستنال
 عقاباً " شديداً " لمخالفة الأوامر (13) .

وتتكرّر هذه الأوامر من قُرّة إلى بسيل في برديّة يونانية أخرى ،
 وفيها يأمره ألا يُغْلِقَ بابَه دون رعيّة وأن يفرّغ نفسه للاستماع إلى
 مطالبهم ، وأن يُعاملهم بالعدل . وعلى أعضاء اللجنة المؤلّفة لتقدير الجزية
 أن يقسموا يميناً " بعدم الظلم أو المحاباة (14) " .

ولم يكتف قُرّة بتوخّي العدل ومخافة اللَّه في تقدير الضّريبة
 وفرضها على الناس ، بل كان يحثّ عمّاله على العدل في جباية الخراج

(13) انظر ترجمة بل للبرديات اليونانية ؛

Translations of the Greek Papyri in the Brittish Museum, Der Islam, vol. II,
 1911, p. 276, n° 1345.

(14) نفسه ، ص 281 - 282 ، رقم 1356 .

المستحقّ على الأراضي واجتناب الظلم ؛ لأنّ الأرض لا تصبرُ على الظلم ؛
ففي إحدى البرديات باللّغة العربيّة يطلب من بسيل أن تختار كلّ قرية
قَبَالاً " تثق به [القبّال ؛ هو الذي يتعهّد بتسلّم غلّة الحراج عن الأرض من
النّاس ، ويكيلها بمكيال خاصّ عُرف بالقنقل ، ويؤدّيها إلى المسؤولين عن
الأهراء (مخازن القمح)] . ثمّ يأمر هؤلاء القبّالين أن يكتالوا على النّاس
بالعدل . وعلى بسيل أن يكون عنده قنقل خاصّ يكيل به بعد كيل القبّالين
ليستوثق من دقّة كيلهم . ثمّ يأمره أن يعاقب كلّ قبّالٍ يعتدي على
الفلاحين في الكيل . وعقوبة القبّال المعتدي شديدة ومتنوّعة ، وهي :

- أن يجلد مئة جلدة .
- أن تُجَزَّ خيَّته ورأسه .
- أن يُغرَمَ ثلاثين ديناراً .
- أن يغرم الزيادة التي أخذها من الفلاحين .

ثمّ يوجّه تحذيراً إلى بسيل بأنّه سيوقع به أقسى العقوبات إذا بلّغ
أنّ القبّالين اعتدوا على الفلاحين .

ويختتم قُرّة رسالته هذه بنصيحة يقدّمها إلى عمّاله على القرى ،
تُعَدُّ قاعدة ثابتة في السّياسة والإدارة ، وتُسَقِّطُ ما قاله المستعربون عن
سبب جلاء الفلاحين عن أراضيهم ، وهو فداحة الضّرائب ؛ لأنّه كان على
وعّي تامّ بأنّ ظلم الأرض يؤدّي إلى خرابها ، يقول : " ... واتق الله فيما
تلي ، فإنّما هي أمانتك ودينك . ثمّ احجّر عمّالك ونفسك عن ظلم أهل
الأرض ؛ فإنّ الأرض لا صبر لها على الظلم ولا بقاء > وإذا أتى أهل
الأرض الظلم والإضاعّة من قِبَل من يلي أمرهم فإنّ ذلك
خرابهم ... " (15) .

(15) البرديّة نشرها بيكر في :

Becker, C.H. Papyri Schott-Rainhardt I (PSR), Heidelberg, 1906, pp. 68-76.

قُرّة بن شريك وقضية الجوالي :

يتّضح من دراسة البرديات باللّغة اليونانية أنّ الجوالي لا يستطيعون التّهرّب من دفع الجزية بجلانهم عن أراضيهم والتّجائهم إلى أراضي أخرى كما زعم المستعربون ؛ لأنّ مصر كانت خاضعة جميعها لولاية قُرّة ، ولأنّ قُرّة كان يقضا " جدّا " ويتمتع بعقلية سياسية وإدارية فذة جعلته يحسن التّصرّف إزاء هذه القضية ؛ ففي بردية يونانية يطلب من بسيل أن يؤلّف لجنة للبحث عن الجوالي في مختلف القرى ، وينبغي أن يكون أعضاء هذه اللجنة ممّن يؤثّق بهم وممّن يحسنون الكتابة ، وأن يحضروا الجوالي إلى الموظّف المسؤول عن الجالية ويسجلوا اسم كلّ جال ونسبه والكورة التي جلا عنها والأرض التي استقرّ فيها . ويتضمّن السّجل أيضا أسماء الذين أعيدوا إلى أراضيهم وأسماء الذين سُمح لهم بالبقاء حيث استقروا شريطة أن يلتزموا لسداد ما يستحقّ عليهم من جزية > وعلى أعضاء لجنة البحث عن الجوالي أن يعملوا بجدّ و ألاّ يقبلوا رشوة من أحد > وإلاّ عرضوا أنفسهم للعقاب ، كما سيعاقب بسيل في حال علمه بذلك (16) .

وفي بردية أخرى يؤمّر بسيل بإرسال الجوالي إلى الفسطاط مع عائلاتهم وممتلكاتهم . ومعهم سجلّ يكتب فيه أسماء الجوالي ونسبهم والأراضي التي جلا عنها ، والأراضي التي استقروا فيها ، ولا سيّما في كورة أشقوة . كما يتضمّن السّجلّ تفصيلات دقيقة عن الممتلكات العينية لكلّ فرد ، ومدة إقامته في الكورة التي استقرّ فيها . ويحذّره من إخفاء المعلومات المتصلة بالجوالي .

وقد زوّد قُرّة رسوله إلى بسيل بأوامر مشدّدة تمنعه من مغادرة أشقوة إلاّ بصحبة الجوالي الذين استقروا فيها منذ عشرين سنة ومعهم

(16) بلّ ، ترجمة البرديات اليونانية ، ص 269 ، رقم 1333 .

السَّجَلِ المشار اليه . ويتكرّر الوعيد بالعقوبة والغرامة لبسيل ولكلّ من يُؤوي جالياً (17) .

ولكي يستوثق قُرّة من أنّ أوامره ستصل إلى كلّ الناس ، طلب من بسيل أن يقرأ رسالته عليهم ، وأن يكلفهم كتابتها بلغتهم لترسل إلى كلّ قرية ، وأن تعلق في كنائسهم ، حاثاً إيّاهم على امتثال أوامره وعدم مُخالفتها . وأنّه سيدفع مكافأة مائيّة لكلّ من يدلي بمعلومات عن الجوالي (18) .

وفي برديّة يونانيّة يُحدّر قُرّة الأهالي الذين يتسترون على الجوالي ، وأنّه سيفرض عليهم غرامة مالية مقدارها عشرة دنانير عن كلّ رجل . أمّا الجالي فسيدفع غرامة قدرها خمسة دنانير . وأمّا العمّال والموظفون والشرطة والمكثفون بالبحث عن الجوالي فسيدفعون غرامة مقدارها خمسة دنانير إذا فشلوا في أداء واجباتهم ، أو اتّضح للجوالي أنّهم يعلمون بوجود بعض الجوالي الذين لم تردأسمائهم في السّجلات المرسلة إلى القسطنطينية . وسيدفع دينارين لكلّ من يُدلي بمعلومات عن الجوالي بعد إعداد السّجل (19) .

ويتّضح من هذا أنّ المشكلة تمتد جذورها إلى عشرين سنة ، أي قبل أن يصبح قُرّة بن شريك واليا على مصر . وهي حقبة طويلة ساد فيها التّسيّب في الإدارة فَهَجِرَت الأراضي الزراعيّة ، وانكسر الخراج ، ولم تكن هناك إدارة حازمة تمنع هذا التّسيّب ، إلى أن جاء قُرّة سنة تسعين للهجرة ، فأراد وضع حدّ لهذه الفوضى المتمثلة في هجرة الفلاحين وانعدام السّجلات الدّقيقة للخراج ، فبدأ بعملية تدقيق لسجلات الخراج ،

(17) نفسه ص 274 ، رقم 1343 و ص 275 رقم 1344 و ص 379 رقم 1382 .

(18) نفسه ، ص 379 رقم 1384 .

(19) البرديّة نفسها ، ص 380 .

ووجه كثيرا من الرسائل إلى القرى بما استحق عليهم من خراج السنوات
التي سبقت ولايته ، كما يتضح من المثالين التاليين :
الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

هذا كتاب من قرة بن شريك لأهل شبرا بسيرو من كورة أشقوة ،
إنه أصابكم من جزية سنة ثمان وثمانين مائة دينار وأربعة دنانير وثلثي
دينار عددا ، ومن ضريبة الطعام أحد عشر أردب قمح وثلث أردب .
وكتب راشد في صفر من سنة إحدى وتسعين ⁽²⁰⁾ .

والمثال الثاني موجه إلى أهل شبرا بنوتية ⁽²¹⁾ :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من قرة بن شريك لأهل شبرا أجييه بنوتية من كورة
أشقوة ، إنه أصابكم من جزية سنة ثمان وثمانين سبعة وثلثين دينارا
" عددا " .

وكتب راشد في صفر من سنة إحدى وتسعين .

كما عمل قرة بن شريك على ضبط هجرة الفلاحين من كورة إلى
أخرى بهدف الحد من هذه الهجرات التي ينشأ عنها خراب الأرض
الزراعية . وهذا ما يفسر الشدة والتهديد بالعقوبة التي رأيناها في
الأمثلة المشار إليها آنفا .

وهكذا نرى أن برديات قرة بن شريك اليونانية والعربية قد فُدت
مزاعم المستعربين فيما يتصل بدافع هجرة الفلاحين من أراضيهم . وبما

(20) جرومان ، أوراق البردي العربية ، ج 3 ، ص 48 ، رقم 160 .

(21) نفسه ، ص 52 ، رقم 161 .

يؤسف له أنّ هذه البرديات لم تكشف لنا عن السبب الحقيقي وراء هذه الهجرات ، وهو ما اعترف به بِلّ (Bell) في دراسته عن البرديات اليونانية المعروفة ببرديات أفروديتو (22) .

ويبقى السؤال قائما " وقابلا " للجدل : لِمَ جلا هؤلاء الناس عن أراضيهم واستقروا في أراض أخرى ؟ وهي مشكلة تذكرنا بما حدث في العراق إبّان حكم الحجاج بن يوسف الثقفي ، وهو معاصر لقُرّة بن شريك : إذ لمّا بنى الحجاج مدينة واسط هجر كثير من الفلاحين أراضيهم الزراعيّة واستقروا في أواسط وغيرها من الأمصار : ويتّضح ذلك من رسالة عمال الحجاج على الخراج التي جاء فيها : " إنّ الخراج قد انكسر ، وإنّ أهل الدّمة أسلموا ولحقوا بالأمصار " (23) .

ولهذا اتخذ الحجاج قرارا " إداريا حازما " يقضي بعودة هؤلاء الفلاحين إلى أراضيهم ، وكتب إلى عمّاله : " إنّ من كان له أصلّ في قرية فليخرج إليها " (24) .

وعلى هذا فالقضيّة قد يكون لها وجهان :

الأوّل : أنّ بعض هؤلاء الجوالي قد دخلوا في الإسلام ، فهجروا أراضيهم الزراعيّة الخراجيّة ظنّا منهم أنّ الخراج يسقط عنهم

Bell, Aphrodito Papyri, p. 107. (22)

(23) انظر حول هذه المسألة : الطبريّ ، محمّد بن جرير ، تاريخ الرّسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، 1962 ، م ، ج 6 ص 381 : البلاذري ، أحمد بن يحيى ، أنساب الأشراف ، نشره Ahlwadt ، ج 11 ، ص 236 - 237 .

(24) انظر تفصيل ذلك في : جاسر أبو صفية ، صورة الحجاج في الرّوايات الأدبيّة . دراسة نقدية ، دراسات ، المجلّد الثامن عشر (1) ، العدد الثالث ، 1991 ، م . ص 314 - 316 .

بذلك . وهو أمرٌ غيرٌ متحقّق لأنّ الأرض التي تفتح عنوة لا يسقط عنها الخراج ، وتسقط الجزية عن صاحبها (25) .

الثاني : أنّ الأرض إذا هُجرت تصبح خراباً لا تَغَلّ ، ولا سَيِّماً إذا لحق أهلها الظلم من الوُلاة ، كما جاء في إحدى برديات قُرّة . وفي هذه الحالة لا يُلزم الفلاحون دفع شيء من الخراج ، وهو ما دفع قُرّة إلى منع هذا التسيّب والحفاظ على الأراضي الزراعيّة .

وقد لوحظ أنّ كثرة هذه الهجرات كانت إلى كورة أشقوة التي كانت تُعدّ حاضرة متميّزة تستقطب الفلاحين للبحث عن مصدر رزق أيسر من زراعة الأرض والقيام عليها . وهو ما يُعرّف اليوم بمشكلة هجرة الرّيْف إلى المدن التي تعاني منها دول العالم الثالث على وجه الخصوص .

جاسر ابو صفية

(25) انظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، المطبعة السلفيّة ، القاهرة ، 1384 هـ ، ص 22 - 24 و 51 و 57 .

